كيف قامت اليابان .

لما قامت جمعية الاتحاد والترقي العثمانية واعادت مجلس المبعوثان من غير سفك دم خُيِّل الينا اننا نلنا ما نتمنّى وانهُ قامت في الشرق الادنى دولة كدولة اليابان في الشرق الاقصى . وبقي هذا الاعتقاد راسخاً في نفوسنا الى أن محتهُ اعمال تلك الجمعيَّة بما ابدت من الاثرة والغطرسة وما ارتكبتهُ من المنكرات

ومن الحقائق المقررة ان كل ما يحدث في الكون انما هو نتائج لمقدمات سابقة ومعلولاً لعلل متقدمة فلو كان في الشرق الادنى ما يعدُّ سكانهُ لبلوغ الغاية التي بلغتها اليابان لبلغوها حتماً فعدم بلوغهم اياها يدلُّ على ان تلك المقدمات والعلل غير موجودة او ان في احوالهم الاجتماعية ما يقاومها

وقد قام العرب الآن وغرضهم ان يستردوا مجدهم السالف وينشئوا دولة عربية عزيزة الجانب فرأينا ان نعيد بعض ما ذكرناهُ قبلاً عن اليابان لعلَّ فيهِ مرشداً لهم في سبيل اقامة هذه الدولة واسترجاع ذلك المجد

بلاد اليابان جزائر كثيرة مساحتها نحو ١٧٦ الف ميل مربع عدا مملكة كوريا التي اضيفت اليها منذ ست سنوات ومساحتها ٨٤ الف ميل مربع . وعدد سكان اليابان وحدها نحو ٥٧ مليوناً وعدد سكان كوريا نحو ١٣ مليوناً فمجموع الامبراطورية اليابانية نحو ٦٨ مليوناً . فهي من حيث كونها جزائر تشبه جزيرة العرب في انفصالها عن غيرها ولكنها تخالفها في كثرة سكانها فليس في جزيرة العرب عشر ما في بلاد اليابان من السكان

وتاريخ البلاد القديم غامض جداً كتواريخ كل الامم القديمة لان صناعة الكتابة لم تدخلها الاَّ في القرن الثالث المسيحي ولم يشرع اهاليها يدونون اخبارهم الاَّ في القرن الخامس ثم احترق كل ما دوَّنوهُ في الثلاثة القرون الاولى . وكل ما يعلم علم اليقين من تاريخهم لا يمتدُّ الى ابعد من القرن الثامن اي انهُ قلَّ يتجاوز في قدمهِ اقدم التواريخ العربية المحفوظة

والمتداوَل عند اليابانيين ان مملكتهم ابتدأت سنة ٦٦٠ قبل المسيح على يد امير جاء بلادهم من ملقًا واخضع سكانها واقام نفسهُ ملكاً عليهم . وليس في تواريخهم ما يؤيد ذلك سوى انهم يعيِّدون لهذا الملك عيدين كل سنة فهم في قدم الملك كاهل اليمن وحضرموت

وكانت مدينة كيوتو عاصمة المملكة ثم اشتدَّ ساعد رجال الحرب فصار لهم شيء من

الاستقلال حتى اصبحت امور المملكة في يدهم . وقامت في القرن التاسع اسرة منهم تولّت نيابة الملك بالتوارث الى انْ قُضي عليها في اواسط القرن الثاني عشر ونشبت حينئذٍ الحروب الاهلية ودامت خمسين سنة الى ان تمكن الملك من اخماد الثورة ثم منح واحداً من اشراف المملكة لقب شوغن ومعناهُ القائد العام وتوارث خلفاؤهُ هذا اللقب وصاروا هم الملوك فعلاً واما الملوك فصاروا مثل الرؤساء الدينيين . اي اصابهم ما اصاب خلفاء بني العباس في عهد ملوك الترك والتتر والمغول فان الميكادو صار مثل الخليفة والشوغن مثل الملك او السلطان

وكان الناس درجات اعلاها قواد الجيش فولاة الاقاليم فالجنود فالتجار فالصناع فالفلاحون . ودامت الحال على هذا المنوال الى اواسط القرن التاسع عشر

وامتازت سلطة القواد بفصل البلاد فصلاً تامًّا عمَّا حولها فانهم منعوا كل احد من دخولها او الخروج منها من بداءة القرن السابع عشر ولم تكن الحال كذلك قبلاً بل كانت البلاد مفتوحة للاجانب وكان الاتصال تامًّا بينها وبين الصين وكوريا والممالك الاوربية وسبب الفصل ديني وسياسي على اثر دخول الاوربيين اليها

ففي سنة ١٥٤٢ كان منديز بنتو البرتغالي ذاهباً من سيام الى مكاو (وهي مستعمرة برتغالية في الصين) فالتت الرياح سفينتهُ على جزيرة صغيرة من جزائر اليابان فرحّب اهلها به وبرجاله واكرموا مثواهم وكان معهُ بعض البنادق فباعها لرئيس القوم وهي اول الاسلحة النارية التي دخلت بلادهم . وذاع خبر ذلك عند البرتغاليين فتقاطروا الى اليابان من مكاو وغوى في الهند وتبعهم الاسبانيون للاتجار في البلاد وجاء بعدهم فرنسيس زفير زعيم الطغمة اليسوعية لتنصير السكان فنصَّر اكثر من الف نفس في سنتين . وواظب اتباعهُ على عملهم ويقال انهُ لم تمضِ ثلاثون سنة حتى صار في اليابان مئتا كنيسة وبلغ عدد المتنصرين خمسين الفًا . واوصل ملك اليابان سنة ١٥٨٢ وفداً الى اوربا فبلغ ثلاثة من الاشراف المتنصرين لتقديم الاحترام الواجب لقداسة البابا فقوبل هذا الوفد بالاكرام التام في اسبانيا والبرتغال وغيرهما من الممالك الكاثوليكية . وظنَّ حينئذٍ ان اهالي اليابان سيتنصرون كلهم ويكونون عضداً للمذهب الكاثوليكي في الشرق الاقصى . وعاد هذا الوفد بعد ثماني سنوات فاحسن الشوغن مقابلتهُ . ولكن الكهنة البوذيين كانوا قد اوجسوا خيفة من انتشار النصرانية وجعلوا يثيرون الشعب عليها مدعين ان اتباعها يهدمون الهيكل ويحتقرون كهنتها . فامر الشوغن ان يخرج كهنة المسيحيين كلهم من اليابان في عشرين يومًا ومَن يبقَ منهم فيها بعد ذلك قدمهُ على رأسهِ . ولكن هذا الامر لم ينفذ بالدقة ثم ثارت نار الاضطهاد على المسيحيين

وقتل منهم سنة ١٥٩٠ عشرون الفاً غير ان التجار الاوربيين لم يبطلوا المجيء الى اليابان وجاء معهم اناس من هولندا وانكلترا في اوائل القرن السابع عشر وانشأوا المعامل في ناغاساكي واوساكا و يدو من امهات مدنها

وسنة ١٦١٣ صدر امر جديد بخروج كل كهنة المسيحيين من بلاد اليابان وتخريب كنائسهم والزام المتنصرين بجحد النصرانية وهذا الامر لم ينفذ تماماً الاَّ سنة ١٦٣٧ حينما حدثت ثورة في البلاد قيل ان المسيحيين اشتركوا فيها فامر الشوغن بطرد كل المرسلين وكل الاجانب ايضاً وحظر على الاجانب دخول بلاد اليابان وعلى اليابانيين الخروج منها . ونفذ هذا الامر حرفياً فاقفلت بلاد اليابان لا احد يدخلها ولا احد يخرج منها . ولم يبقَ فيها احد من الاسبانيين او البرتغاليين او الانكليز لا من التجار ولا من المرسلين . والذين تنصروا ارتدوا او قتلوا ولكن يقال انهُ بقي بعضهم محتفظين بالدين المسيحي سرّاً . ولم يبقَ مكان من كل بلاد اليابان متصلاً بالاجانب الاَّ جزيرة ناغاساكي المجاورة لبلاد الصين فان التجار الصينيين لم يتفكوا عن التردد اليها وبقي فيها بعض التجار الهولنديين لكنهم حُصروا في بقعة صغيرة واجيز لهم ان يأتوا بسفينتين هولنديتين كل سنة . ومُنع بناء السفن الكبيرة لكي يتعذر على اليابانيين الخروج من بلادهم

والظاهر ان اقفال باب اليابان في وجه الاجانب كان سببهُ طمع الاجانب وغطرستهم لكن جمهور اليابانيين نسبوهُ الى فعل الرسالات الدينية في محاولتها تنصير الاهالي فصاروا يمقتون الاجانب المسيحيين ودعاتهم

الآن هذا الاعتزال لم يضر اليابان لأنها اضطرت ان تعتمد على نفسها فانقنت زراعتها وصناعتها ووسعت نطاق تجارتها الداخلية اي انها بنت على ما استفادتهُ من الاوربيين فزادت ثروةً وزاد سكانها همةً ونشاطاً وحفظت استقلالها ولو بقيت متصلة باسبانيا والبرتغال ما كانت الآن احسن منها بل المرجح ان اتصالها باوربا كان اوقعها في مشاكل كثيرة اقضي عليها بمحاربة دولة او اكثر من دول اوربا قبلما اشتدَّ ساعدها فتدور الدائرة عليها وتصير مثل ممالك الهند وسيام وانام . وانفصالها هذا لم يمنع نوابغ رجالها من تعرُّف حال الاوربيين والرغبة في الحوك على شؤالهم لاسيما وان اجب شيء الى الانسان ما مُنع . وحبك للشيء يزيد متى ذقتهُ مرةً ثم مُنعت عنهُ . وكان قيد المنع يتكرَّر كلما حاولت دولة من دول اوربا فتح باب اليابان بالترغيب او بالترهيب فتزيد الرغبة في كسر ذلك القيد

وسنة ١٨٤٠ الى ١٨٤٢ حاربت انكلترا الصين في مسألة الافيون المشهورة فاوجست

اليابان من ذلك شرًّا وخافت ان يصيبها ما اصاب جارتها . ووصلت سفينة فرنسوية الى جزيرة صغيرة من جزائرها سنة ١٨٤٦ وحاول من فيها ان يقنعوا سكانها ليطلبوا حماية فرنسا وقاية لهم من انكلترا وفعل الهولنديون مثل ذلك في مكان آخر فزاد تيقظ الحكام اليابانيين اذ رأوا دول اوربا تتسابق الى خطب ودهم وكل واحدة تحذرهم من غيرها

وكانت السفن الاميركية تصطاد الحيتان في البحار المجاورة لليابان وتعبث بها الرياح احيانًا فتكسرها ويقع بحارتها على جزائر يابانية فيحسن السكان معاملتهم او يعيشونها واتفق غير مرة ان السفن الاميركية انقذت بحارة بعض السفن اليابانية وردتهم الى بلادهم آملة ان يفتح الباب لها بسبب ذلك فلم يفتح . وسنة ١٨٤٦ ارسلت الحكومة الاميركية سفينة حربية الى بلاد اليابان فيها تسعون مدفعًا فدخلت خليج يدو وطلبت من ولاة الامور اليابانيين ان يعقدوا معاهدة تجارية مع اميركا فرفضوا ذلك وقالوا انهم لا يودون ان يعقدوا معاهدات تجارية ولا ان تدخل بلادهم سفن اجنبية

وشكا الصياديون الاميركيون انهم يضطرون احيانًا كثيرة ان يلجأوا الى المرافىء اليابانية هربًا من النوء او طلبًا للزاد فيعاملون شر معاملة . فاقترت الحكومة الاميركية على ان ترسل اسطولاً الى اليابان وتطلب منها ان لا تسيء معاملة البحارة الاميركيين وتظهر لها من الشدة ما يحملها تجيب طلبها فارسلت مثيو بري في هذه البعثة بعد ان استعدت لها بجمع كل ما كُتب عن اليابان وكل الخرائط التي رُسمت لها . ويقال انها اشترت تلك الخرائط بثلاثين الف ريال وارسلت مع بري امثلة من كل المصنوعات الاميركية لكي يعرضها في بلاد اليابان

فاقلع الاسطول في ٤ نوفمبر سنة ١٨٥٢ وكان مؤلفًا من اربع سفن حربية فبلغ خليج يدو في ٨ يوليو سنة ١٨٥٣ والحال ارسل الشوغن يستشير اميكادو فيما يحسن عملهُ في تلك الحال . وهي اول مرة استشار الشوغن اميكادو فيها . وطلب من وجوه البلاد من كل الطبقات ان يجتمعوا ويبدوا رأيهم فيما يجب التعويل عليهِ ونودي باقامة الصلوات في كل البلاد لحفظها واهلاك الاجانب . وطُلب من بري ان يرجع الى نغاساكي لتكون المذاكرة معهُ هناك فرفض واصرَّ على ان يأتيهُ رجل منصبهُ من الدرجة الاولى للمذاكرة معهُ . فاجيب طلبهُ ولما اتاهُ هذا الرجل سلمهُ كتابًا من رئيس الولايات المتحدة الى الميكادو فيهِ المطالب التي تطلبها اميركا ولكنهُ لم يطلب عقد معاهدة تجارية وقال انهُ راجع حينئذٍ الى بلاده وسيعود في الربيع المقبل لاخذ الجواب عن كتاب الرئيس . ولم يكد يقلع حتى جعل

اليابان يتبصرون في امرهم ويستعدون لمقابلة القوة بالقوة ولكن ضعفت حماستهم كأنهم شعروا ان استعدادهم لا يجديهم نفعاً والمطالب التي طلبتها اميركا لا ثقل عليهم فالرأي في هذه الحال فوق شجاعة الشجعان

وعاد بري في الربيع التالي ومعهُ عشر سفن حربية فقوبل بالترحاب واستمرّ الاحتفال بهِ ستة اسابيع وفي خلالها وقّعت اليابان معاهدة تقضي عليها بان تسمح للسفن الاميركية ان ترسو في بعض موانئها وتباع المؤونة منها وان تحسن معاملة التجارة الذين تتكسر سفنهم . مطالب سهلة جدًّا ولكنها فتحت باب اليابان بعد ان أوصد زمناً طويلاً وقد ادرك اليابانيون ذلك فقالوا في السنة التالية ان اسم بري سيبقى خالداً في تاريخ اليابان ثم اقاموا لهُ تذكاراً بديعاً سنة ١٩١٠ في المكان الذي نزل فيهِ اول مرة جمعوا المال اللازم لهُ من كل طبقات الامّة اليابانية دلالة على انها اشتركت كلها في الشكر لهُ واحياء ذكره في بلادها

وسنة ١٨٥٥ ارسل رئيس الولايات المتحدة تاجراً من تجار نيويورك اسمهُ هرس ليكون قنصلاً جنرالاً في بلاد اليابان واوصاهُ ان يبذل جهدهُ في عقد معاهدة تجارية فتمكن بسعيهِ وحسن دربتهِ من عقد معاهدتين الاولى توسع للاميركيين الاقامة في المرافئ اليابانية والثانية تبيح المتاجرة بين اميركا واليابان في مينا يوكاهاما بعد ٤ يوليو سنة ١٨٥٩ وطلب هرس ان توقع هذه المعاهدة الاخيرة في وشنطون ويحضر توقيعها وفد من اليابانيين . فذهب هذا الوفد الى اميركا على سفينة حربية اميركية وكان فيهِ ٧١ نفساً من رجال الحكومة اليابانية وخدمهم فاحتفل بهم الاميركيون اعظم احتفال في كل المدن الاميركية التي دخلوها في طريقهم الى ان بلغوا وشنطون . ولما وُقّعت هذه المعاهدة جُعل هرس سفيراً لاميركا في اليابان

وعقدت معاهدات تجارية بين اليابان وبريطانيا وفرنسا وروسيا فاضطربت حال البلاد على اثر ذلك لانهُ كان فيها حزب كبير غير راضٍ عن ذلك واضطر الشوغن ان يأمر باخراج الاجانب كلهم من البلاد لكن نواب الدول الاجنبية افهموا لرجاله ان دولهم تحارب اليابان اذا اصرّت على العمل بهذا الامر فألغاهُ

والذي وقّع كل هذه المعاهدات هو الشوغن لا الميكادو فاشار سفير انكلترا على سائر السفراء ان يطلبوا توقيعها من الميكادو ايضاً ففعلوا ولما وقع الميكادو المعاهدات بطل الاعتراض عليها والغت حكومة اليابان امرها بمنع اليابانيين من الخروج من بلادهم

لما ارتقى الميكادو السابق الى سرير الملك سنة ١٨٦٨ طلب ان تضيق سلطة الشوغن

فتنازل الشوغن عن سلطته كلها من تلقاء نفسه وألغى منصبهُ وعادت السلطة كلها الى يد الميكادو فنقل كرسي ملكه الى يدو التي كانت كرسي الشوغن وسميت طوكيو اي العاصمة الشرقية وضرب على يد الحزب المقاوم لهُ وبعد قليل قام اشراف البلاد وتنازلوا من تلقاء انفسهم عمَّا لهم من الالقاب والرتب والاملاك وطلبوا ان يعاد تنظيم البلاد على اسلوب جديد . اي زال الحكم الاقطاعي دفعةً واحدة بعد ان استمرَّ في البلاد ثمانمئة سنة . وتنازل الفريق الحربي وعددهُ اربع مئة الف نفس عن امتيازاتهِ ورضي ان يكون مثل عامَّة السكان

ومن مزايا اليابانيين انهم يفكرون طويلاً ثم يعملون سريعاً فلما فكَّروا وامعنوا نظرهم في احوالهم وما اتصل بهم عملهُ من احوال الممالك الاوربية رأوا ان لا بدَّ لهم من مجاراة الاوربيين والجري على المبادىء الدستورية ففعلوا ثم انشأوا مجلساً للنواب ومجلساً للاعيان وجعلوا حكومتهم دستورية بعد ان وضعوا دستوراً لها مقتبساً من قوانين الحكومات الاوربية وجعلوا التعليم الابتدائي اجبارياً للصبيان والبنات فوق سن السادسة وانشأوا مدارس كثيرة لتعليم المعلمين والمعلمات . وجعلوا الخدمة العسكرية اجبارية ايضاً كما هي في فرنسا والمانيا . ومرَّت الاعوام والبلاد تزيد ارتقاء باقتباس افضل ما في العمران الاوربي والاميركي . وظهرت نتيجة ذلك في حربها مع الصين سنة ١٨٩٤ ثم مع روسيا سنة ١٩٠٤ . وكانت قبل حربها مع روسيا قد عقدت معاهدة حربية مع انكلترا من مقتضاها ان كل دولة منهما تعاون الاخرى اذا اضطرت هذه ان تحارب اكثر من دولة واحدة واخيراً اشتركت في الحرب الحالية واخرجت الالمان من كياوتشاو عنوةً ثم مكنت ارتباطها بروسيا وحسبها فخراً ان دول اوربا الكبرى ينظرن اليها الآن كواحدة منهنَّ فوزراؤها وقوادها براً وبحراً لا يقلون عن وزراء الاوربيين وقوادهم دربةً وحنكةً وبنوكها ومعاملها الصناعية وشركاتها التجارية وعلماؤها وادباؤها وكل من يقوم بهِ شان البلاد لا يقل عن مثله في اوربا واميركا وكل ذلك نتيجة السعي والاجتهاد في نصف قرن لا غير

قلنا في صدر هذه المقالة ان الاتراك اخطأوا ظننا فيهم مع اننا كنا نحسبهم اقرب من اليابانيين الى السير في خطط الدول الدستورية فهل يفلح العرب اكثر منهم اذا استتبَّ لهم الاستقلال التام اي هل نقوم في جزيرة العرب والشام والعراق دولة عربية دستورية عزيزة الجانب وهل تشمل هذه الدولة الديار المصرية فيسترد بها مجد العرب او دون ذلك موانع سياسية واجتماعية لا نقوى على تذليلها